البـــاب السـادس

فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية

قال رضى الله عنه فى قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إنى أخاف الله. ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1].

فقال الشيخ رضى الله عنه:

الإمام العادل هو القلب.

ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه، أى ورجل قلبه معلق بالعرش، فإن العرش مسجد قلوب المؤمنين.

ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه أى خاليا من النفس والهوى.

ورجل تصدق بصدقة أى فأخفاها عن نفسه وهواه.

وكذلك قال فى قوله عز وجل: ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا﴾[2] أى من النفس والهوى.

فاعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه.

أما الإمام العادل فإنه عدل فى عباد الله فآوى المظلوم إلى ظل عدله فآواه الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الشاب الذى نشأ فى عبادة الله فإنه آوى إلى الله معرضا عن هواه آويا إلى كنف مولاه فصنع الحق معه ذلك فى الآخرة جزاء كما صنع هو ذلك مع الله فى الدنيا معاملة.

وأما الرجل الذى قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه فإنه آثر طاعة الله وغلب عليه حب الله فلذلك صار قلبه متعلقا بالمسجد لا يحب البراح عنه؛ لأنه يجد فيه روح القربة وحلاوة الخدمة، فآوى إلى الله مؤثرا لربوبيته، فآواه الله وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله جزاء لما سبق من معاملته.

وأما الرجلان اللذان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، فإنهما تواصلا بروح الله وتآلفا بمحبة الله وكان ذلك منهما انحياشا[3] إلى الله فآواهما الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) رواه مالك والترمذى وأحمد والشيخان والنسائى ومسلم.

(٢) مريم: ٣.

(٣) أى: ميلا ولجوءا إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الرجل الذى دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إنى أخاف الله فإنه صلى نار مخالفة الهوى مخافة من المولى وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى، فلما خاف من الله هرب إليه، ولما هرب إليه ههنا معاملة، آواه الله إليه فى الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذى ذكر الله خاليا ففاضت عيناه فإنه لم تفض عيناه إلا من القروح التى أحرقت قلبه إما حياء من الله أو شوقا إليه أو خوفا من ربوبيته أو لشهود التقصير معه، فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله وانحياشا إليه بالاعتذار إليه أو بالشوق إليه فآوى إلى الله فأظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذى تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه فإنه قد آثر على نفسه ببذل الدنيا إيثارا لحب الله على ما تحبه نفسه؛ لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها إلا من آثر الله عليها؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ.

«والصدقة برهان»(٤).

أى برهان يدل على أن العبد آثر مولاه على نفسه وهواه، فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة من الله عليه بأن أظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وتشترك الأقسام السبعة فى معنى واحد؛ فلذلك جوزوا جزاء واحدا.

اشتركت فى أن كلا من هؤلاء السبعة صلى حر مخالفة الهوى فى الدنيا، فلم يذقه الله حر الآخرة، وقد قال ﷺ حاكيا عن الله تعالى:

«لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمنين: إن أمنته فى الدنيا أخفته فى الآخرة وإن أخفته فى الدنيا أمنته فى الآخرة».

وقال رضى الله عنه فى قوله ﷺ:

«يسِّروا ولا تعسِّروا».

أى دلّوهم على الله ولا تدلّوهم على غيره، فإن من دلَّك على الدنيا فقد غرّك، ومن دلّك على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلّك على الله فقد نصحك.

وقال فى قوله ﷺ:

«رأيت الجنة فتناولت منها عنقودًا لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»: فقال رضى الله عنه: الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء، والأولياء يطالعون مُثُلَها؛ فلذلك قال الرسول ﷺ: «رأيت الجنة».

ولم يقل كأنى رأيت الجنة.

وقال حارثة لما قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟

قال أصبحت مؤمنًا حقًّا.

---

(٤) رواه مسلم.

فقال ﷺ: لكل حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال عَزَبَت[٥] نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها، وكأنّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون، وكأنى أنظر إلى أهل النار فى النار يعذّبون، وكأنى أرى عرش ربّى بارزًا، من أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى.

فقال له الرسول ﷺ: يا حارثة عرفت فالزم.

ثم قال ﷺ: «عبدٌ نوّر الله قلبه[٦] بنور الإيمان».

فقال حارثة: كأنى أنظر ولم يقل رأيت؛ لأن ذلك للأنبياء دونه، وكذلك قول حنظلة الأسدى لرسول الله ﷺ: تُذَكّرنا بالجنة والنار حتى كأنّا نراها رأى عين[٧]. ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه.

وفى حديث حارثة فوائد عشرة:

الأولى: أنه لما سأل النبى ﷺ حارثة فقال له:

كيف أصبحت يا حارثة؟

لم يقل حارثة: غنيًّا ولا صحيحًا ولا شيئًا من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية؛ لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجلّ من أن يسأل عن دنيا، بل فهم عنه أنه إنما سأله كيف حاله مع الله فلذلك قال الصحابى:

أصبحت مؤمنًا حقًّا.

أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يخبرونك إلّا عن دنياهم، وربما أخبروك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيما استثاره بسؤاله لجريان سببه منه.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحجّ: كيف كان حجّكم؟ فقال ذلك الرجل: كثير الرخاء كثير الماء، فسعر كذا كذا وسعر كذا كذا، فأعرض الشيخ عنه وقال:

تسألونهم عن حجّهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلّا عن ذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغى للمشايخ أن يتفقدوا أحوال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين؛ لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى.

الفائدة الثالثة: انظر إلى قوّة نور حارثة فى قوله: أصبحت مؤمنًا حقًّا، فلولا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين والتحقق بالسنة ما أخبر بذلك وأبداه أثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين

---

(٥) أى: عزفت وأعرضت كارهة.

(٦) رواه البزار بسند ضعيف عن أنس، والطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك. وسنده ضعيف أيضًا وكلٌّ منهما يقوّى الآخر. والمعنى فى الجوّ الإسلامى صحيح.

(٧) رواه مسلم وسيأتى به ابن عطاء الله بعد ذلك.

يدى صاحب المحو والإثبات، وإنما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طواعية رسول الله ﷺ واجبة، والرسول قد استخبره عن حاله فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه ببركات متابعة رسول الله ﷺ ليفرح له رسول الله ﷺ بمنة الله فيشكر الله عنه ويسأله تثبيت ما أعطاه.

مثل هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال:

وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضى الله عنه، قال عمر؛ ما هذا، ما أسرع ما أحدثتم، والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم؟

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هى من حدث كان، وأن الحدث منهم، وأنه برىء منه، فهل هذا إلّا من نور البصيرة الكاملة التى وُهبها عمر رضى الله عنه.

وكذلك ضربه لأبى هريرة رضى الله عنهما فى صدره حين وجد معه نعلى رسول الله ﷺ وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله أن يبشره بالجنة ورجوعها إلى رسول الله ﷺ، وقول عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشّر من لقى من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله؟

قال: نعم.

قال: لا تفعل يا رسول الله خلّهم يعملوا.

فقال رسول الله ﷺ: خلّهم يعملوا.

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضى الله عنه، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ، واختطافه من نوره. وهذا الحديث. مروى فى صحيح مسلم وإنما ذكرناه ههنا مختصرًا(٨).

الفائدة الرابعة: يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى قسمين: إيمان حقيقى وإيمان رسمى؛ فلذلك أخبر الصحابى بقوله: أصبحت مؤمنًا حقًا، والحديث يشهد له أيضًا.

وروى البخارى يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(٨) ونصّه كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال:

كنا قعودًا حول رسول ﷺ معنا أبو بكر وعمر فى نفر، فقام رسول الله من بين أظهرنا، فأبطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا فقمنا، فكنت أوّل من فزع، فخرجت أبتغى رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطًا للأنصار لبنى النجار، فدرت به هل أجد له بابًا، فلم أجد فإذا ربيع يدخل فى جوف حائط من بئر خارجه - والربيع الجدول - فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟.. فقلت: نعم يا رسول الله. قال: ما شأنك؟.. قلت: كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا فخشينا أن تقتطع دوننا ففزعنا، فكنت أوّل من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائى. فقال: يا أبا هريرة، وأعطانى نعلَيه، قال: اذهب بنعلىّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة، فكان أوّل من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة فقلت: هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثنى بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه بشرته بالجنة. فضرب عمر بيده بين ثديى، فخررت لإستى، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاءً، وركبنى عمر فإذا هو على أثرى، فقال لى رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة، قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذى بعثتنى به، فضرب بين ثديى ضربةً خررت لإستى. قال: ارجع. فقال له رسول ﷺ: يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟.. قال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى. أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقى يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه بشّره بالجنة؟ قال: نعم. قال: فلا تفعل فإنى أخشى أن يتّكل الناس عليها، فخلّهم يعملون. قال رسول الله ﷺ: فخلّهم.

«ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً».

وروى أيضًا: قال ﷺ:

«ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا الله، وأن توقد نار عظيمة فكان أن يقع فيها خيرٌ له من أن يشرك بالله».

وقد جاء فى الحديث أيضًا قال ﷺ:

«المؤمن القوى خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خيرٌ»(٩).

وقد قال الله سبحانه:

﴿أولئك هم المؤمنون حقًّا﴾(١٠).

وهما صنفان: عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان.

وهذا الإيمان الثانى تارةً يسمّى إيمانًا، وتارةً يسمّى يقينًا؛ لأنه إيمان انبسطت أنواره، وظهرت آثاره، واستمكن فى القلب عموده، وداوم السرّ شهوده، وعنه يكون خالص الولاية، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية.

وليس يستوى إيمان مؤمن يَغْلبِ الهوى، وإيمان مؤمنٍ يغلبه الهوى، ولا إيمان مؤمنٍ تَعرِض له العوارض فيدافعها بإيمانه كإيمان مؤمنٍ غسَل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعيانه.

ولأجل هذا اختلف أهل الطريق فى عبديْن: أحدهما يردُ عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلًا أيها أتم؟

والذى لاشكّ فيه تفضيل هذا القسم الثانى فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة. والأوّل هو حال أهل المجاهدة.

ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلّا والنور قد ملأ زواياه فلأ جل ذلك لم يجد خاطر الذنب مساغًا.

الفائدة الخامسة: مطالبة رسول الله ﷺ لحارثة بإقامة البرهان على ما أثبته لنفسه، فيدلّ ذلك أنه ليس كل من ادّعى دعوى سُلِّمت له، وقد قال الله سبحانه:

﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾(١١).

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾(١٢).

فموازين الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم، وقد قال سبحانه:

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾(١٣).

فمن ادّعى حالاً مع الله أقيم عليه ميزانها فإن شهد له سلّمناها له وإلّا فلا، وإذا كانت الدنيا

---

(٩) رواه مسلم، وتمامه: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(١٠) الأنفال: ٤.

(١١) البقرة: ٩٤.

(١٢) النمل: ٦٤.

(١٣) الرحمن: ٩.

على خساسة قدرها عند الله لا تسلم لك إلَّا ببيّنة تقيمها، فمن الأحرى أن لا تسلم لك مراتب الموقنين حتى يثبتها لك برهان أو تسلمها لك حقيقة.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: لو كان المسئول أبا بكر رضى الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة برهان على ما ادّعى؛ لأن عظم رتبة أبى بكر رضى الله عنه شاهدة له من غير إظهار برهان، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه، فمنهم من هو كحارثة لما ادّعى حقيقة الإيمان طولب ببرهانها، ومنهم من هو كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما يثبت لهما الرسول ﷺ الرتب وإن لم يثبتاها لأنفسهما ألا ترى الحديث الوارد عن الرسول الله ﷺ: أن بقرة فى بنى إسرائيل ركبها رجل وأجهدها فقالت: سبحان الله، لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث.

فقال الصحابة: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ فقال الرسول ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر(١٤)، وهما غائبان.

فانظر هذه المرتبة ما أفخمها، وهذه المنزلة ما أعظمها.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: معنى قوله ﷺ: «آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

أى من غير عجب، وأنتم آمنتم متعجبين، لأجل ذلك قالوا: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟

وكان أبو العباس يقول: إن الملائكة لما بشّرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت: ﴿أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلى شيخًا إنّ هذا لشيءٌ عجيب﴾(١٥).

فقالت الملائكة لها:

﴿أتعجبين من أمر الله﴾.

أى أمر الله لا يتعجب منه، فلم يسمّها الحق صدّيقة، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سمّاها الله صدّيقة فقال سبحانه:

﴿وأمّه صِدّيقة﴾(١٦).

الفائدة السابعة: استدلال الصحابى على حقيقة إيمانه بزهده فى الدنيا، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق به من قام به أورثه الزهد فى الدنيا؛ لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق بلقائه، وعلمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك فيورثك ذلك الزهد فى الدنيا؛ ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف همتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد فى الدنيا مثبت لها، فإنه شهد لها بالوجود إذ أثبتها مزهودًا فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه: والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها،

---

(١٤) رواه البخارى بنحوه فى أحاديث الأنبياء.

(١٥) هود: ٧٢.

(١٦) جزء من آية ٧٥ من سورة المائدة وتمامها ﴿كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾.

ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء الفانى عما فنى عنه، فإثبات أنك فانٍ عن الشىء إثبات لذلك الشىء فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك.

ولنا فى هذا المعنى أبيات كتبتها لبعض الأصحاب يسمّى حسنًا:

حسنٌ بأن تدع الوجود بأسره ... حسنٌ فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمتَ لتعلمنّ بأنه ... لا ترْك إلّا للذى هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه ... من وهمِك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده ... والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلى الصرح من الهدى ... دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شىء غيره ... يقضى به الآن اللبيب العاقل(١٧)
لا غير إلّا نسبة مثبوتة ... ليذّم ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة: قول الصحابى رضى الله عنه: عزبت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها.

العزوب هو ترك الشىء بالتعزز له والإعراض عنه؛ إذ لو قال: تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع فرب تارك للشىء وهو له متطلع، فالعزوب إعراض مع كراهة وتحقّر، ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها، وقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا جيفة قذرة».

وقال ﷺ للضحاك: ما طعامك؟ قال: اللحم واللبن.

قال: ثم يعود إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله.

قال: فإن الله قد جعل ما يخرج من بنى آدم مثلًا للدنيا(١٨).

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشهدها جيفةً قذرةً فحرىّ أن يصرف همّته عنها.

فإن قلت: فقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»(١٩).

فاعلم أن الدنيا جيفة قذرة فى مرائى البصائر، وحلوة فى مرائى الأبصار.

فإن قلت: فما فائدة الإخبار بأنها حلوة خضرة؟ فاعلم أن قوله ﷺ أن الدنيا جيفة قذرة للتنفير، وقوله: الدنيا حلوة خضرة للتحذير؛ أى فلا تغرّنكم بحلاوتها وخضرتها فإن حلاوتها فى التحقيق مرارة وخضرتها يبس، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال:

«هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الفائدة التاسعة: وقوف الصحابى رضى الله عنه على مستحق رتبته بقوله: وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ولم يقل نظرت، وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء

---

(١٧) المراد: الحديث الذى رواه البخارى بسنده عن عمران بن حصين ونصه:
«كان الله ولم يكن شىء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والأرض».
(١٨) رواه أحمد والطبرانى وفيه: على بن زيد بن جدعان مختلف فيه ورواه ابن حبان.
(١٩) رواه الترمذى فى الفتن والزهد، وابن ماجه فى الفتن، والدارمى فى الرقاق، وأحمد فى مسنده.

والأولياء يطالعون مُثُلها.

الفائدة العاشرة: قوله: فمن أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى؛ فحارثة عبد وصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ألا تراه كيف قال فى الأوّل: عزبت نفسى عن الدنيا، ثم قال بعد ذلك: فمن أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهارى. فسبق عزوب نفسه عن الدنيا معاملته لربه.

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه:

﴿الله يجتبى إليه من يشاءُ ويهدى إليه من ينيب﴾[٢٠].

ونور الله يرد على القلب فيوجب له الاتّصاف بصفة الزهد فى الدنيا والإعراض عنها ثم ينبث منه إلى الجوارح، فما وصل منه إلى العين أوجب الاعتبار، وإلى الأذن أوجب حسن الاستماع، وإلى اللسان أورث الذكر، وإلى الأركان أورث الخدمة.

والدليل على أن النور يوجب عزوب الهمّة عن الدنيا والنأى عنها قول رسول الله ﷺ:

«إنّ النور إذا دخل الصدر انشرح وانفسح».

فقيل: يا رسول الله فهل لذلك من علامة؟

قال: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود»[٢١].

وأما حديث حنظلة الأسدى فقد رواه مسلم فى صحيحه، قال: لقى حنظلة أبا بكر رضى الله عنه فقال: نافق حنظلة.

فقال أبو بكر رضى الله عنه وما شأن حنظلة؟

قال: نكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار حتى كانا رأى عين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات والزوجات[٢٢] نسينا كثيرًا.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: إنّا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ثم أتيا رسول الله ﷺ فقال حنظلة: يا رسول الله نافق حنظلة.

فقال رسول الله ﷺ: وما شأن حنظلة؟

فقال: نكون عندك يا رسول الله فتذكرنا الجنة والنار حتى كأنها رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات نسينا كثيرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده يا حنظلة لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة».

ففى هذا الحديث ثمانى فوائد:

---

(٢٠) الشورى: ١٣.

(٢١) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير بنحوه، وعبد الرزاق.

(٢٢) أى اجتهدنا فى شئون حياتنا ومع أهلينا فخالطناهم ولاعبناهم وعالجنا أمورهم.

الأولى: قول حنظلة: نافق حنظلة.

النفاق: مأخوذ من نافقاء اليربوع[٢٣] وهو أن يجعل لبيته بابين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر، كذلك المنافق يظهر بظاهر الإيمان وله مسرب من الكفر باطن إذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر ما الإيمان فتح مسربًا من باطن كفره ليسلم من عتبهم، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها تصوّن من ذلك بظاهر الإيمان الذى أظهره؛ ولذلك أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا، وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزِئون﴾[٢٤].

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حالة فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ خاف أن يكون ذلك نفاقًا لاختلاف حالتيه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ وحمله الإيمان على أن أظهر ذلك ليتطلب الشفاء منه، ويشكو داءه لمن يجد الشفاء عنده، فلما شكا ذلك لأبى بكر رضى الله عنه، قال له أبو بكر: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ولم يجبه أبو بكر رضى الله عنه؛ لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة، ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه.

الفائدة الثانية: يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء إما بأن يقال إن ما ظننته داء ليس بداء، وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء فحنظلة قيل له إن ما ظننته داء ليس بداء.

الفائدة الثالثة: قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا رأى عين، ولم يقل حتى نراهما رأى عين لما قدمناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مُثُلها فلذلك قال حنظلة حتى كأنا رأى عين، ولم يقل حتى نراهما رأى عين، كما قال حارثة، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة ولم يقل نظرت إلى أهل الجنة وقد تقدم هذا من قبل.

الفائدة الرابعة: ينبغى أن يقلل الدخول فى أسباب الدنيا ما أمكن، فهذا الصحابى يقول: فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيرًا وقد قال رسول الله ﷺ.

«إن قليلًا من الدنيا يلهى عن كثير من الآخرة».

وقال ﷺ: «ما طلعت شمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان: يأيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

الفائدة الخامسة: قوله ﷺ: «لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم».

فيه إشارة إلى أن الدوام على تلك الحالة عزيز، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب معتبة، لما طبع عليه البشر من الغفلة، فكان الدوام على تلك الحالة كالمعسور.

---

(٢٣) اليربوع أو الجربوع أو الدرص أو ذو الرميح: حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير وفى حجمه تقريبا.
(٢٤) البقرة: ١٤.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه، يقول: لم يقل رسول الله ﷺ إن ذلك محال أن يكون أعنى ما رتب على تقدير الدوام وهو قوله: «لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم» فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك.

الفائدة السابعة: إنما خصّ الرسول ﷺ الفرش والطريق لأن الفرش محل الشهوات والطرق محل الغفلات، فإذا صافحتهم الملائكة فى طرقهم وفرشهم فمن الأحرى أن تصافحهم فى محل طاعاتهم ومواطن أذكارهم.

الفائدة الثامنة: اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوى وقت كينونتهم عنده ووقت ذكرهم بما سواهما حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرته ﷺ وعزازة الذكر وجلالة منصبها.

وقال رضى الله عنه: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر يقرأ ويخفى صوته، وسمع عمر يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبى بكر: لم أخفضت صوتك؟ فقال: قد أسمعتُ من ناجيت.

وقال لعمر: لم رفعت صوتك؟ فقال لأوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال لأبى بكر: ارفع قليلًا، وقال لعمر اخفض قليلًا.

قال الشيخ رضى الله عنه: أراد أن يخرج كلا منهما عن إرادته لنفسه لمراد رسول الله ﷺ له.

وقال رضى الله عنه فى قول رسول الله ﷺ:

«أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»:

أى ولا أفتخر بالسيادة، وإنما أفتخر بالعبودية لله سبحانه.

وكان كثيرًا ما ينشد:

يا عمرو نادى عبد زهراء ... يعرفه السامع والرائى
لا تدْعنى إلا بياعبدها ... فإنه أشرف أسمائى

وقال: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول:

المؤمن فى الدنيا أسير ولا فكاك للأسير إلّا بإحدى ثلاث: إمّا بالحيلة، وإما بالفدية، وإما بالعناية.

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن»(٢٥)

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تفسير هذا الحديث: وشأن المسجون التحديق بعينيه والإصغاء بأذنيه متى يدعى فيجيب.

وقال رضى الله عنه: الأنبياء إلى أممهم عطيّة ونبينا ﷺ هديّة، وفرق بين العطية والهدية: لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله ﷺ:

---

(٢٥) رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه.

«إنما أنا رحمة مهداة»(٢٦).

وقال فى قوله ﷺ: «السلطان ظلّ الله فى الأرض»(٢٧): هذا إذا كان عادلاً، فأمّا إذا كان جائرًا فهو ظلّ النفس والهوى.

وقال رضى الله عنه: مات رجل من أهل الصفة فوجد فى شملته ديناران فقال ﷺ: «كيّتان من نار».

قال الشيخ: وقد مات على عهد رسول الله ﷺ كثير من الصحابة وتركوا أموالاً فما قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال فى هذا؛ لأنهم لم يبطنوا خلاف ما أظهروا، وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر الفاقة، وكان عنده هذان الديناران، فلما أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ: «كيتان من نار».

وقال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»(٢٨).

فقال رضى الله عنه: بأى طريق يحشر مع النبيين؟ وبأى طريق يحشر مع الصديقين، وبأى طريق يحشر مع الشهداء، وبأى طريق يحشر مع الصالحين؟

يحشر مع الأنبياء، فإن الأنبياء، شأنهم أداءُ الأمانة، بذل النصيحة. فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف، وهذا التاجر أدّى الأمانة وبذل النصيحة.

ويحشر مع الصديقين؛ لأن الصدّيق شأنه الصفاءُ فى الظاهر والباطن، قد استوى ظاهره وباطنه، والتاجر الصدوق كذلك، فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف.

ويحشر مع الشهداء؛ فإن الشهيد شأنه الجهاد، والتاجر الصدوق يجاهد نفسه وشيطانه وهواه، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف.

ويحشر مع الصالحين؛ فإن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف(٢٩).

---

(٢٦) ابن سعد والحكيم عن أبى صالح مرسلاً، والحاكم عن أبى هريرة وصححه.

(٢٧) رواه الطبرانى والبيهقى فى الشعب.

(٢٨) رواه ابن ماجه والحاكم والترمذى.

(٢٩) الدنيا المذمومة فى العرف الدينى هى الشهوات، يقول الله سبحانه:

﴿زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث﴾ ثم قال سبحانه عن كل ذلك: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

أما إذا استخدمت الدنيا من أجل الآخرة، فإنها لا تصبح شهوات، إنما تصبح معبرًا يعبر به الإنسان - فى رضا من الله - إلى الآخرة، ومن أجل ذلك يقول سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾ فإذا ما صير الإنسان حياته تجارة وعبادة وغير ذلك. وإذا ما صير حياته عبادةً بالنية الصادقة فى الاتجاه إلى الله فقد استجاب إلى الغاية التى أحبّها الله سبحانه وتعالى من الخلق، وما ذكرناه هو نوع من الشرح لكلام الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.